مناظرة هادئة . . .

للأستاذ علي الطنطاوي

نحن معشر الرجعيين . . لا نرى قتال المرأة ولا نزالها ، ونجد ذلك قادحاً بالرجولة ، ونعد ذنب المرأة مغفوراً وجنايتها جُباراً ، ولكن آراء الرجعيين الجامدين من أمثالي ... صارت أثراً عتيقاً من آثار القرن الماضي لا تصلح إلا لدار الآثار ... وقد تغيرت الدنيا وأهلها ، وأصبح من أشد ما تأباه المرأة (أو السيدة إذا شئت الأدب في الخطاب) وتنكره وتراه هواناً لها ونزولا بها عن منزلتها أن تترفق بها لأنها امرأة وغدت تريد أن تكافح الرجل وتنازله ، لا ترى نفسها أصغر من أن تغلبه ، ولا تجده أكبر من أن ينهزم أمامها . فعلى هذا ، وإكراماً للسيدة الجديدة ، ومجاراة لها في مذهبها ، ووفاء بحق هذه الأمانة ، أمانة (القلم) الذي منّ الله به عليّ وجعلني من أهله ، لأضرب به في كل ميدان إصلاح ، وأقرع به كل معالم الفساد ، لا تمنعني من ذلك رهبة عدوّ ، ولا رغبة في مودة صديق . لهذا كله أعرض اليوم عرضاً إلى هذه (النهضة النسائية) التي أصبح الكلام فيها واجباً وجوب عين ، فعفوَ كنّ — يا سيداتي — فأنتن أردتن هذا ، وإنه لا يزعجكن — فيما أظن — الكلام في هذه النهضة ، لأنها ليست من الضعف (في رأيكن) ومن الوهن بحيث تنهدم من ضربة ، وتطير من نفخة ، ثم إني كتبت بحثاً لا مبتدئاً ، ومنتصفاً لا معتدياً ...

ولا بدّ لي قبلُ من ذكر مقالتي (دفاع عن الفضيلة)[1] ، لأن هذا الفصل كالتعليق عليها ، ولولا الحياء وخوف من أن أوصف بالغرور ، وبأني ممن يحرص على (صيد) الفرص ، لينوّه باسم نفسه ويزكيها ، لقلت : إنه قلما تصيب مقالة من النجاح الصحفي ما أصابت هذه المقالة (في بلاد الشام) ، فقد نفدت نسخ «الرسالة» كلها في ساعات من نهار ، حتى صارت النسخة تطلب بأضعاف ثمنها فلا توجد ، وقرأ كل نسخة — فيما أقدّر — أكثر من خمسة ، ومن القراء من أخبرني أنه كان يعقد لها المجالس ليتلوها فيها كما تتلى المحاضرات ، وسُرّ بالمقالة جمهور من الناس ودعا لي من أجلها وأثنى عليّ وهنأني ، وغضب منها جمهور من الناس ودعا عليّ وشتمني ولعنني ، ورأى فيها إخواننا الرجعيون ... الخيّرون أنصار الفضيلة ترجمة آرائهم ولسان أفكارهم ، ورأى فيها المجددون تجديد الباطل ، المجردون أنفسهم وأهليهم من ثياب الستر ، المبددون تراث الأجداد الماجد الثمين ، سدّاً في طريقهم إلى غايتهم التي يدعون إليها ، وبلاء صبّه الله عليهم ، وخزياً لهم وغيظاً لقلوبهم ، فقالوا : رجعي ؛ وقالوا : مجنون ؛ وقالوا : مُشتَّته محروم ينفّس بهذا عن نفسه ؛ وقالوا : فاجر يتستر بالدفاع عن الفضيلة ، وما باليت كل ما قالوا ... لأني ما كتبت هذا المقال ، وما قبله ، ولا ألححت هذا الإلحاح على محاربة تلك المفاسد ، ابتغاء رضا الناس ، فأنا أعلم أن من تغضبه هذه الكتابات أطول يداً ، وأشدّ سلطاناً ، وأحدّ لساناً ، وأقدر (ولا يقدر إلا الله) على نفعي وضري ، ولكني كتبتها ، وكتب مثلها الأستاذ سيد قطب ، غضباً لله ولدينه ولمحارمه ، وتنبيهاً لهذه الأمة الناقلة ، أن يفتك بها ذلك الداء ، وتحرقها تلك النار ، ووطنت نفسي على حمل ما (قد) تأتيني به من الأذى ، لا حمل الضعيف العاجز ، بل المحارب المقاتل الذي لا تصيبه الضربة حتى يردها بعون الله عشراً . على أني إذا لمت الحكومات ورجالها ، فلا أرى العلماء ولا الأدباء ، فهم أولى باللوم ، وأحق للتبعة ، إذ يسكتون عن إنكار المنكر ، ولا يسخرون له ألسنتهم وأقلامهم ، ولو أنهم أدّوا زكاة بيانهم دفاعاً عن الفضائل والأعراض ، وأثاروها داحسيّة بسوسيّة على الإباحية والفجور ، لما حقت هذه اللعنة علينا حتى صار يقود ناشئتنا في دورنا وأسواقنا نفر من الفجار عباد إبليس ، سموا أنفسهم كتاباً وصحفيين ، وصارت لهم كتب تقرأ ومجلات .. وما كتبهم ولا مجلاتهم إلا الترجمة الفنية لحديث المراقص والمواخير ، وبيوت الخنا والزنا ، وما يكون فيها من مشاهد وصور ، تحملها كل يد إلى كل دار ، فيقرؤها الشاب في المدرسة ، والفتاة في الخدر ، فتكون هادياً لهم إلى تلك البيوت وإماماً !

ولكن السؤول قبل الحكومات وأرباب البيان ، والمجرم الأول ، ومنبع الشر ورأس البلاء ، إنما هو الأب ، الأب الذي يشتري لبنته لباس المرشدات ، وتُبّان[1] السباحة ، ويقطع لها

(١) الرسالة ، العدد ٦٨٧

(١) التبان : هو المسمى بذاته .

(تذكرة السفر) إلى بلاج الأسكندرية ، وفندق بلودان ، ومحاقل لبنان ، ويرضى لها أن تتكشف وتتعرى ، وتحتك بالشبان فى الترام ، وتشرب القهوة عند البياع فى سوق الحرير ، ويرسلها إلى مدارس يعلم فيها أدب بشار وأبى نواس شباب فى أعصابهم مثل النار التى فى أعصابها ، ويبعثها فى رحلاتهم التى تمتد أياماً وليالى ، تنزل معهم فى الفنادق ، وتركب معهم فى السيارات ، وتؤم معهم المتنزهات ، وتسمع (وكيف لا تسمع ؟) الفاحش من نكاتهم ، والبذئ من أغانيهم ، وما أغانيهم إلا غزل فى مثلها وتشوّق إليها ، وهى فى السن التى تُصرّخ فيها غريزتها ، وتغلى دماؤها ، ويتفتح للحب قلبها !

ولا يدرى هذا الأب المغفل القرّنان أن ليست عاقبة هذا إلا فضيحة تقصم الظهر أو مرضاً يحمل إلى القبر ، ثم إنها لظى ، نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتولى !

أقول : إن هذه المقالة شغلت الناس ، واختلفت فيها آراؤهم ، وكان من أعجب ما سمعت من التعليق عليها ، أنى كنت فى الترام ، وكان الترام فى تلك الساعة خالياً ، فسمعت حديثاً بين امرأتين فى غرفة النساء ، لا أراهما ولا تريانى ، موضوعه التعليق على هذه المقالة ، ولست أروى من هذا الحديث إلا كلمتين اثنتين تدلان عليه ، قالت الأولى :

— يُه ! ما تردّى عليه ؟ ينزل عليه الدم ان شا الله ، وعلى هالمشايخ كلهم !

قالت الثانية : وانت ليش مهتمة فيه ، مين رادد عليه ؟ يبعت له الحنّى ، يعنى بدّو نرجع للورا ، ونضيع النهضة النسائية ونرجع جاهلات متحجبات ، يتحكم فينا الرجال ؟ قشر ! إننا سنكسر راسه !

وليصدقنى القراء إذا قلت لهم إن هذا كلامهم بالحرف الواحد! وأنا لا أحب أن أردّ الشتائم ولا أحسن مثلها مع الأسف الشديد ، إنما أحب أن أبحث فى أصل الموضوع ، أما رأسى فقد عجزت عن كسره أقلام كتاب فحول ، حاولته من قبل ، وألسنة خطباء مقاول ، وعصىّ حكام جبابرة ، فلن تكسره أقلام طرية ، فى أيد ذات سوار ، رخصة البنان ، محمرة الأظافر . لا يا سيداتى ، إن الله قد صنعه من (مواد غير قابلة للكسر) ، فدعنّ رأسى وتعالين نتناظر (مناظرة هادئة) فى هذه النهضة النسائية ، فذلك أجدى عليكن من كسر رأس لا تستفدن من كسره شيئاً ... لأن رؤوس (الرجعيين) لا تزال كثيرة جداً !

ما هى هذه النهضة النسائية ؟ بما ذا تختلف نساء اليوم عن نساء الأمس ؟ أنا ألخص الاختلاف فى كلمات :

كانت نساؤنا تقيات جاهلات متحجبات مقصورات فى البيوت ، فرقّ دينهن وتعلمن وسفرن وخالطن الرجال ، فلننظر فى كل خصلة من هذه الخصال ، أكانت خيراً أم كانت شراً :

أما الدين (على إطلاقه) وخوف الله فى السر والعلن ، وما يكون معه من الاطمئنان والرضا ، والإحسان إلى الناس ، والبعد عن الفواحش ، وترك الكذب والغش والحسد والمكر ، وهذه خلائق يوحى بها كل دين من الأديان الصحيحة والفاسدة ، فلا يشك عاقل فى أنه خير ، وأن تركه شرّ ، وأن هذه النهضة بإبعادها النساء عن شرعة الدين ، قد أضرّت ولم تنفع ، وكان ضررها مضاعفاً مكرراً ، لأنه إن جاز أن يمنع الرجل من الفاحشة خلقه وإرادته ، فقد ثبت أن المرأة لا يمنعها منها إلا دينها !

وأما العلم ، فهو خير للمرأة بشرط أن تتعلم ما يصلحها ويصلح لها ، وألا يوجب تعلمها اختلاطها بالرجال ، لأننا إن قدرنا العلم قدره ، وعرفنا له فضله ، فلا نستطيع أن نفرط من أجله بالشرف ولا نضيع العرض ، وهما أكبر قدراً وأكثر فضلا ، وليس معنى هذا أن كل اختلاط يؤدى حتما إلى إضاعة العرض ، لا ، ولكن الغرائز موجودة ، والشهوات مستقرة فى النفس ، إنْ منعها سدّ فقد تطغى فتحطم السدّ أو تعلو عليه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، والعبرة بالشائع الغالب ، لا الأقل النادر ، وعلى ذلك نزلت الشرائع ووضعت القوانين ، ولو كان احتمال سقوط المرأة فى هذا الاختلاط واحداً فى الألف لوجب منعه وتحريمه ، لأن أمة فى كل ألف من نسائها واحدة ساقطة لأمة فاجرة ليست بذات خلق قويم ، ولا تستحق أن تعيش ....

ونحن لا نكره أن نرى فى نسائنا أمثال باحثة البادية ، ووردة اليازجى ، ومىّ ، ومارى عجمى ، ووداد سكاكينى ، ولكن أين السبيل إلى أن نوجد أمثالهنّ ؟ وهل توصل إلى ذلك مدارسنا ؟ إننا نبصر فتيات يتجاوز عددهن الآلاف المؤلفة ، يقطعن الطرقات كل يوم إلى المدارس ، غدواً إليها ورواحاً منها وهنّ بأبهى زينة وأبهج منظر ، يقرأن كل ما يقرؤه الشبان من هندسة وجبر

ومثلثات وكيمياء وفيزياء وأدب غَزِل ، ويتعلمن الرسم والرياضة والغناء ، ويدخلن مع الشبّاب فى الامتحانات العامة ، ويحملن مثلهم البكالوريات والدبلومات ، ويجمعهن مجلس بعد هذا كله بالعاميات الجاهليات ، فلا تجدهنّ أصح منهن فكراً ، ولا أبعد نظراً ، ولا ترى لهذا الحشد من المعلومات الذى جمع فى رؤوسهن من أثر فى المحاكمة ولا فى النظر إلى الأشياء ، فكأن هذه المعلومات الأغانى التى تعب فى اسطوانات الحاكى (الفونوغراف) إن أدرتَه سمعت لهجة فصيحة ، وكلاماً بيناً ، ونغماً حلواً ، فتقول إنها تنطق ، فإذا سألتها وكلمتها رأيتها جماداً أخرس ، ليس فيها إلا ما استودعته من الكلام الملحّن ... !

وهذا حق ، ما أوردت بسرده الانتقاص ، ولكن بيان الواقع

ثم إن تزوجن لم يحترن إلا بإهمال الولد ، وتركه للخادمات والمراضع ، والانصراف عن الدار وأعمالها ، والترفع عن الزوج ، ثم إنه لا يعجب إحداهن إلا أن تلقى فى زوجها حماراً (ولا مؤاخذة) تركبه إلى غايتها ، لا رجلا تحبه وتطيعه ويحبها ويرفق بها

وإن هى اشتغلت معلمة أو ممرضة أو طبيبة ، لم تكن إلا (دون الوسط) فى المعلمين والممرضين والأطباء ، فما هذا العلم ؟ ولما ذا لا تتعلم ما ينفعها امرأةً وزوجةً وأماً وربةَ بيت ؟ ولما ذا لا تتعلم مع ذلك التحرر من عبادة (الموضات) والأزياء ، ومن حبّ تقليد النساء الغربيات حتى فيما هو ضرر محض ، وأن يجعل لها العلم استقلالا فى فكرها ، تتبع كل ما تجده صالحاً ولو كان مخالفاً للموضة ، مبايناً لما عليه أهلها ؟

وأما الحجاب ، وأعنى به ستر الأعضاء التى تثير غرائز الشر فى نفوس الرجال ، حتى تبقى الفتاة كالجوهرة فى صدفتها ، لا يصل إليها سارق ولا غاصب ، فأنا أفهم سبب ثورة الفساق من الرجال عليه . إنهم يريدون أن يستمتعوا بالجمال المحرّم عليهم ، ولكنى لا أفهم أبداً لما ذا يقلدهم النساء فى هذه الثورة ، وما وضع الحجاب إلا لصيانتهن وإكرامهن ؟ وما ذا يضر السيدة الفاضلة المتعلمة إذا لبست اللباس المحتشم الساتر ، وهى ترى الرجل الذى تحاول التشبه به لا يكشف إلا وجهه وكفيه ، مع أنها هى التى ينبغى ألا يظهر منها إلا وجهها (عند أمن الفتنة) وكفاها ؟ أفانعكست الحال ، وانقلبت الأمور ، حتى احتجب الرجال وتكشف النساء ؟ وما الذى ربحناه من السفور ؟ ليجب من كان عنده جواب مقنع ،

أما أنا فأدعى أننا لم نربح منه إلا الشرور والفجور ، والدلائل حاضرات :

أما الاختلاط ، واشتغال المرأة بأعمال الرجل ، فأنا أعجب من مطالبة المرأة به ، ولا أفهم من منا يريد لها الخير ، ومن الصديق لها ومن العدو !

نحن نريد لها أن تكون سيدة حقاً مخدومة لا خادمة ، تأتيها حاجتها من غير أن تسعى إليها ، وهم يريدون أن تسعى وتزاحم الرجال حتى تصل إلى خبزها ، ولو اشتغلت بأخسّ الصناعات وأحطّ المهن ، ويدعون مع ذلك أنهم أنصار المساواة

أين المساواة إذا حملت على ظهرها مثل حمل الرجل وهى تحمل فى بطنها ولده ، وأخذت مثل وظيفته وهو يغذى نفسه وهى تغذى نفسها وتغذى من ثديها ابنه ؟

ثم إنكن تقلدن أوربة ، مع أن المرأة تشتغل فى أوربة عن عوز وحاجة ، وكريمات السيدات لا يشتغلن شيئاً ، إنما تعمل البائسات الفقيرات ويتمنين زوجاً يخلصهن من جهد العمل ، وإن عقلاء أوربة يصيحون شاكين من مزاحمة المرأة الرجل . فقد عطلت بيتها ، وشغلت الرجل بـ (غير العمل ..) فقللت إنتاجه ، ورضيت بالأجر الخسيس ، فنزلت الأجور ، فاضطر العامل أن يبعث بامرأته إلى العمل ، فجاءت قضية الدور التى زعم الناطقة أنها من المستحيل !

أفنبدأ نحن من حيث أراد الغرب أن ينتهى ؟ أنلحق ما يريدون هم الفرار منه ؟ !

وهذه هى الصناعات ، فأيها تصلح له المرأة العادية وتعدل فيه الرجل ؟ إعرضها كلها من تكسير الحطب وتنظيف المجارى وكنس الطرق إلى المحاماة والقضاء والنيابة والوزارة ، وأخبرنى عما تختارن منها ...

نعم ، إن الدهر يجود أحياناً بنساء نابغات يصلحن لبعض أعمال الرجال ، ولكن الكلام على سواد الرجال والنساء لا على النادر ، فكم هى نسبة الصالحين لكل من هذه الأعمال من الجنسين ؟ وإذا صلح لها النساء فهل يصلح الرجال (بالمقابلة) للطبخ وإدارة المنزل وتربية الطفل ؟ إن هذا ينتهى بنا إلى إعلان (مساواة الجنسين) ، وأنه لم يبق مجال للتفريق بين رجل وامرأة ؟ وإذن يجب على الحكومة أن تسنّ قانوناً يجعل الحبل على كل